



المحاضرة : العاشرة
(ج) الرؤية الواقعية الفنية للواقع

في البداية لابد أن نفرق بين الرؤى الثلاث :

الرؤية الواقعية الفنية : لا تلغي الواقع ، وتبحث عن بديل مثالي له ، بل تتصل بالواقع اتصالا مباشرا ، وتبصر به بوصفه حركة مضطربة تموج بالجدل .

الرؤية الرومانتيكية : تلغي الواقع ، وتبحث عن بديل له .

الرؤية الكلاسيكية : ترى الواقع من وجهه الظاهري ، وتسجله كما هو مائل للعيان .

الرؤية الواقعية الفنية للواقع:

تبصر الرؤية الواقعية بالواقع الذي تصنعه عناصر وروافد كثيرة متخالفة ومتجانسة ، فتتجاوز تسجيل ظاهرة ، بل تغوص في أعماقه تستكنه حقيقته . وهي لاتصوغ حقيقته صياغة تسجيلية مباشرة بل تستغل كل وسائل الأداء الفني من الرمز التاريخي ، ومن الأسطورة ذات المغزى والدلالة وغيرها من الوسائل .

إنها رؤية ملتزمة ، تتعمق الواقع ، وتكشف أبعاده ، ثم تقول كلمتها فيه بما تراه تحقيقا لصالح الجماعة وسعادة الإنسان .

وتكشف قصيدة للشاعر " عبد العزيز المقالح " " مآرب يتكلم " أبعاد بوادر تحول في الشعر اليمني إلى الرؤية الواقعية .
يقول :

أهرام مصر بعد رحلة الصمت الحزين
ثارت

تكلمت على شواطئ السنين
حتى أبو الهول الصموت
أثر أن يمزق الستار
تدحرجت من فمه الأحجار
ألقى بصمته للرمل والرياح
أطلق للحنجرة السجينة الجناح
وحوله تكلمت أحجار بعلبك

وصوت " أوراس " العظيم
يهز جدران النجوم
يدق أبواب الفلك
وتدمر الصامته الرمال والأحجار
تذبح صمتها
تطعمه للنار
تنشب في جدرانه الأظفار
ونينوى وكل صامت تكلم
لم يبق غيري صامتا
على طريق العصر واجما
جذور صمتي اللعين
أنبتت السجون والجماجما

وهأنا ... بموجة النيران والدما
غسلت وجهي الحزين
مزقت وجه الصمت والعدم
أطلقتها من قبضة الألم
أرسلتها حزينة النغم
هل تسمعين : هذه الصخور
صوت الذي يثور
صوت الذي يغادر القبور
صوت الذي يعبر جسر الصمت والوجوم
يجرب التحليق والكلام
يزرع في الخرائب الشاحبة الرسوم
بعض زهور الحب والسلام

يحدثنا الشاعر عن التحول التاريخي في اليمن الذي وضعته الثورة على بدايته ، فقد خرجت اليمن من صمتها التاريخي للحاق بواقع العصر وحركة تطوره في المنطقة العربية برمتها . لقد كانت رؤية الشاعر لحركة التاريخ وحتميته هي ما أمكنه من فهم طبيعة ما حدث في الواقع اليمني المعاصر . فاليمن وأقطار أخرى ضاعت في الزمن ، ولكن هاهي ذي مصر التي رمز لها بأبي الهول ، ولبنان (بعلمك) وسوريا (تدمر) والعراق (نينوى) والجزائر (أوراس) قد ثارت ، ووجدت بذلك طريقها إلى الخلاص ، وأن الألوان لتحرك اليمن وتغسل وجهها بالدماء والنار . وهكذا تنفذ رؤية الشاعر في أعماق الواقع لكي تبصر بالحتمية التاريخية التي تحدد حركته ومساره .

نلاحظ في القصيد تلاحم الشاعر مع موضوعه (الوطن) فيتكلم
بلسان اليمن ، فكأن صوته الذي مزق حجب الصمت ، هو نفسه
صوت اليمن التي خرجت من عزلتها ، لتبدأ مسيرتها التاريخية .
وقد كشف الالتحام بين الشاعر وواقعه عن رؤية جدلية للواقع
الذي شاء أن ينطلق .

ولكن هل وجد هذا الصوت استجابة ، وحدث الانطلاق؟
يجيب الشاعر في قصيدته ” مقتطفات من خطاب نوح بعد
الطوفان“ :

قلت لكم من قبل أن يثور ماء البحر

قبل أن تعربد الأمواج

وقبل أن يغيب وجه الأرض

قلت لكم : الداء والعلاج

لم تحفلوا
لم تسمعوا
كنتم هناك في الغيوم ، في الأبراج

يتحدث الشاعر بلسان النبي نوح موظفا قصة الطوفان الذي
أغرق الناس إلا قلة بعد أن يؤس من إصلاحهم ، وهو بذلك
يسقط مهمة النبي في قومه على الشاعر ، كما يسقط قصة
الطوفان على بلاده ، فكلاهما رفع صوته محذرا ، ولكن القوم
لم يستجيبوا.

ولكن الشاعر لم يبئس ، بل راح يهیی كل وسائل النجاة ويدعوهم إلى
سفینته قبل أن یحل الطوفان:

لكن صوتي ضاع في الرياح

سفینتي تاهت بها الأمواج

فأبحرت خالية إلا من الأحزان والملاح

ویأتي الطوفان على كل شيء ، فتخرب وتدمر كل ما هو مثمر وجميل ،
فیقف نوح – أو المقالح – المثل بالآحزان للكارثة المدمرة التي كان من
الممكن تجنبها ، لهذا یلوم قومه الذین وقعوا في قبضة الإعصار:

قلت لكم والمد لم یزل بعيدا

والبحر لم یزل بعيدا

أن تفتحوا عیونكم على الخطر

أن تجمعوا السادة والعبيدا

أن تصنعوا من شوقكم ، من حبكم نشیدا

لتصعدوا به إلى القمر

لقد أبصر الشاعر بالخطر المحدق النابع من الداخل ، وقد
نبه قومه إليهما ، ولكنهم أشاحوا النظر عنه ، ولم يروا خطرا
، بل اتهموا الشاعر ، وسخروا منه تماما كقوم نوح عليه
السلام ، لقد خانتهم الرؤية ، ومات الضمير ، فكانت الكارثة :
لا سفن البحر ولا الفضاء
تتقذكم من قبضة القضاء
فقد طغى الطوفان
وكان ياما كان

وهكذا تتجاوز رؤية الشاعر السطح الخارجي للواقع لكي تنفذ
إلى العوامل المتحركة في باطنه ، وإلى العوامل الخارجية التي
يتحرك في إطارها ، وقد وضعها الشاعر في إطار فني استثمر
قصة الطوفان لها لكي تستوعب هذه الرؤية .

وهكذا نجد أن الشاعر قد رأى رؤية واقعية جديدة ، وعبر عنه
تعبيرا فنيا ، إنه موقف ملتزم تحدد عن طريق الفن .
والمقالح واحد من بين شعراء آخرين مثلوا الاتجاه الواقعي
الفني ، الذين يمثلون البراعم الواعدة بشعر يلحق بروح العصر
معنى ومبنى ، أو التزاما فنيا .